وسجودهم وتكريمهم لله وحده فلذلك يستحقون ان يجبهم الجميع ويكرموهم. فلو وُجد في الكتب نبرة ما بحقهم ليس فقط لم نكن نغيّرها ونحرّفها بل كنا ننظر اليها بفرح عظيم وننتظر تمامها كما ننتظر ذاك الذي سيأتي في المنتهى كما قلنا عنهُ اعلاه. لاننا لسنا منتقمين وصايا الله بل بالأحرى نحفظها بكل تدقيق

وملكنا قال لي متبسماً: فلنترك الآن المحاورة ونتكلم عن هذه الأمور في وقتٍ آخر حينما يصير لنا فرصة لنعكف عليها

فنحن نمجّدنا الله الذي هو ملك الملوك وربّ الأرباب وهو يعطي الحكمة والفهم للملوك لكي يدبّروا محاكمهم بالعدالة والرحمة. ثم دعونا للملك ولدولته طالبين من الله ان يؤيّدها ويحفظها في العالم دائماً وان يثبت سدّة عرشهِ بالعدل والبرّ الى الابد لمين. وهكذا خرجنا من عندهِ

قبر عَزْرا الكاتب (١)

للاديب يوسف افندي غنيمة

توطئة

عزرا والعرب يدعونهُ باسم عُزَير هو الكاتب والكاهن الذي كان في خدمة ملك بابل ارتخشتا المعروف بالطويل اليد الذي ملك من السنة ٤٦٤ الى ٤٢٤ قبل المسيح. يرتقي نسبهُ الى هارون (سفر عزرا الاوّل ٧: ١-٥) وهناك ورد شيءٌ من تاريخهِ (١عزرا ٧ و ١٠ ثمّ ٢ عزرا ٨-١٢) وذكرهُ يوسيفيوس في العاديات اليهوديّة (ك ١١ ف ٥ ع ١-٥). حظيَ لدى ملك بابل ونال منهُ ان يعود الى اورشليم مع قسم من اهل الجلاء الذين لم يعودوا مع زربابل وكان عددهم ١٧٠٠ واعطاهُ مئة وزنة فضّة فكان وصوله الى اورشليم في غرّة الشهر الخامس من

(١) هذا فصل استللناه من كتابنا «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق» الذي انجزنا تأليفه ولم نطبعه بعد. وقد نشرنا فذلكةً منه في مجلّة المقتطف الغرّاء (ايلول وتشرين الاول ١٩٣٠) ونشرنا ثلاثة فصول في وضيمة دار السلام في بغداد (٢٢ آب و ١٩ ايلول و ١٤ تشرين الثاني ١٩٣٠) وهذا فصل لم ينشر بعد ارصدناه للمشرق الاغرّ

مشهد عزرا الكاتب

على ضفة دجلة قريباً من شط العرب

السنة ٤٥٩ ق م قسمي باصلاح اموال اليهود في فلسطين وتطبيقها مع امور الشريعة فاستحق بذلك شكر أمتهِ . ثمَّ ساعد عحيا في اصلاحاتهِ ايضاً سنة ٤٤٤ (٢ عزرا ف ٢ : ١ و ٨ : ١) . وكانت وفاتهُ قبل السنة ٤٣٣ . وعلى رأي يوسيفوس انهُ توفي في اورشليم . وفي تقليد اليهود انهُ عاد الى بابل فزعم بعضهم انهُ فيها توفي ولهُ من العمر ١٢٠ سنة وارتأى غيرهم انهُ توفي في زمزومو على ضفَّة نهر دجلة قريباً من القرنة حيث تجتمع دجلة والفرات في شط العرب . وهناك مشهد على اسمه . يحجُّ اليهِ اليهود منذ قرون عديدة . وهو الذي ورد هنا وصفهُ (المشرق)

يقوم هذا المعهد الديني اليهودي في بقعةٍ من الارض على عُدوة دجلة اليمنى بين القرنة والعمارة على مقربة اثنين وعشرين ميلاً من ملتقى الرافدَين حيث تكثر المستنقعات وتتوفَّر القصباء والحلفاء . هناك في تلك الخلوة البعيدة عن ضجيج الناس وقلاقل المدن . هناك حيث يسود السكون والهدوء وتجري دجلة متمرِّجةً وملتوية حاملة بين امواج مياهها من ذكرى التاريخ أبدعها ومن عِبَر الايام أوقعها في النفوس تحمل تقاليد يهود العراق مرقد عَزْرا الكاتب : كاتب الشريعة ورائد بني اسرائيل في رجوعهم الى مسقط راسهم وبيت عزّهم وقدس اقداسهم . ويحفّ بالمقام اشجار النخل الباسقة التي تهديهِ آيات السلام وشعائر الاحترام

اختلف ثقات المؤرخين في مدفن هذا الرجل الإمام ومحلّ وفاتهِ فمنهم من قال انه دُفن في عَوَرْتا من اعمال نابلس (١ . ومنهم من قال انه قُبر في زمزومو (Zam-zumu) في اسفل دجلة بينما كان مسافرًا الى بلاد فارس (٢ واثبت غيرهم انهُ لُحد في اورشليم (٣ وربما كانت هذه الرواية على شيء من الصحَّة . الَّا ان تقليد اليهود في العراق وتواتر روايات المؤرخين والراحلين من غيرهم يعتبران مدفنهُ في العراق حيث يزورهُ بنو قومهِ

اما نحن فلا نبتّ في هذه المسئلة التاريخية المتوغّلة في القدم بل ندع الاهتمام بها الى الاثريين الاختصاصيين والمنقبين البحَّاثين ربما يتوصَّل واحد منهم الى إماطة اللثام عن هذه الحقيقة التاريخية الكتابية وجلُّ قصدنا في كتابة هذا الفصل ان ننقل اقدم النصوص الواردة في كتب التاريخ عن المزار العراقي اليهودي ووصفه

ان ياقوت ذكر مدفن عزرا في اعمال نابلس على ما مرَّ بك بيد انهُ ذكره ايضاً

---

١) معجم البلدان مادة عورتا ٢) Sir, E. A. Wallis Budge: *By Nile and Tigris, vol. I, p. 171*

٣) يوسيفوس . كتاب العاديات الفصل الحادي عشر العدد الخامس

في محلّه في اعمال بصرة العراق في موضعين من معجم البلدان في مادتي ميسان ونهر سُرة واليك ما جاء عنه في كل منهما :

جاء في مادّة ميسان : «اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط قصبتُها مَيْسان .... وفي هذه الكورة قرية فيها قبر عزرا النبي عليه السلام مشهور معمور يقوم بخدمته اليهود ولهم عليه وقوف وتأتيه النذور وانا رأيتهُ »

وجاء في مادة نهر سُرة : «قرية فيها قبر العُزَيْر النبي عليه السلام في ارض ميسان»

وقد ذكر القزويني (١ من رجال القرن الثالث عشر للمسيح مشهد عزير النبي وهو يكرّر كلام ياقوت بالحرف في كتابه آثار البلاد

وقد زاره في القرن الحادي عشر الرحّالة بنيامين التطيلي الّا ان مما يؤسف له ان في اخبار هذه الرحلة التي نشرها آشير قد سقط اسم المكان الموجود فيه هذا المزار فورد كلامهُ على هذه الصورة مبتورًا قال : «ان مدفن عزرا الكاهن والكاتب واقع في .... حيث دهمهُ الحِمام بينما كان مسافرًا من اورشليم الى الملك ارتحششتا وحيث يأتي اليهود للصلوة ايام الاعياد (٢ »

وقد ذكر هذا المزار يهوذا الحريزي الذي زاره في اوائل القرن الثالث عشر وقال عنه في رحلته التي بدأ بها سنة ١٢١٧ م في الفصل الخامس والثلاثين منها ما ملخّص تعريبه : انه غادر بلاد اسبانية وسافر في البحر وكانت قِبْلته بلاد الكلدان قرب شوشن وعلى مقربة منها موضع يدعى سمدا (وربما صحيحهُ نهر سمرا) وبالعبرية اهوا (٣ - فعلى بعد ثلاثة فراسخ من هذا المكان تقريباً قبر عزرا الموجود منذ عهده الاول اي منذ بناء الهيكل الثاني الى نحو السنة الألف من الأسر . وكان بعد انقضاء هذا العهد العهيد عبارةً عن كومة اطلال ولم تسمح تلك الدوارس للمطّلع الوقوف على شيء من ذلك الاثر . وقد علمنا من اناس كثيرين انه منذ ١٦٠ سنة أُوحي الى

١) أطلب طبعة غوتنجن سنة ١٨٤٨ (ص ١٣٠)

٢) راجع M. Edouard Charton: *Voyageurs Anciens et Modernes, II, 188*

٣) اعتمادًا على هذا النصّ نشر حضرة الاب انستاس الكرملي فصلًا في ١١ كانون الثاني ١٩٢٠ في وضيمة دار السلام البغدادية رجّح فيه توحيد نهر سمرا ونهر اهوا الوارد ذكره في سفر عزرا (٨ : ١٥ و ٢١ و ٣١) مخطئًا رأي من سبقهُ من العلماء الكتابيين في موضع اهوا او نهر اهوا

احد الرعاة موضع رمس هذا الملك الالهي وتكرّرت هذه الرؤيا ثلاث او اربع مرات. وقد أيد قدرته بشفاء عين الراعي فاعاد اليه بصره. وعلى اثر ذلك دعا الراعي سكّان تلك البقعة وروى لهم حلمه وعيّن المكان الذي فيه القبر وتأييداً لصحّة مروياته قصّ عليهم خبر شفائه العجيب. وعند ما ألحّ عليهم كل الالحاح حفروا الارض فوجدوا صندوقاً من حديد محفوظاً في تابوت آخر مسدود ومختوم وفيه كتابة لم يتمكن من قراءتها القوم. فتقدّم احد علماء اليهود وفكّ طلسمها وقرأ فيها اسم عزرا واسماء اجداده الى هرون الكاهن العظيم. وكانت تُشاهَد احياناً انوار فوق ذلك القبر المحتاط بقبور سبعة صالحين آخرين. وقد حاول كثيرون من الدهريّين ان يتّخذوا تلك المعجزة حادثةً غريبة من الحوادث الجيولوجية او يعتبروها انفجاراً ارضياً منبعثاً من أطيمة او ينبوع قطران تشتدّ ناره ليلاً (١. وقد شاهدتُ هذه المعجزة بعيني وسجدت امام هذا المظهر من مظاهر العناية الالهية (٢. اه

وقد وصفهُ ريج (Rich) (٣ في بدء القرن التاسع عشر وصفاً دقيقاً قال: «هو بناء يشبه جامعاً يقوم على لسان بارز في النهر. وقد نشأ هذا اللسان من دورة تدورها دجلة هناك حيث تلتوي كل الالتواء. وقد التفّ حول المكان عدد من الاعراب يسكنون قريةً مساكنها من القصب. وموقعهُ في الجانب الايمن من النهر تحتاط بجدار وحصون والقبّة مغشّاة باجرّ اخضر مطليّ بدهان الخزف (يريد الواصف بهذا الاجرّ القاشاني المشهور في العراق) يعلوها زينة من نحاس اصفر تمثل كفّاً مفتوحاً تحيط به اشعة جلال. وبعد ان جزنا الباب رأينا ساحة دار صغيرة ثم بلغنا قاعةً فسيحة مظلمة فيها طيقان تسندها كوم مربّعة من الاجرّ (اي اعمدة مربّعة من الآجرّ) مجرّدة من كل زينة. ومن هنا جُزنا باباً منخفضاً افضى بنا الى غرفة مودع فيها مَن هو موضوع احترام اليهود الديني. انّ سقف الغرفة معقود وفيها نوافذ صغيرة مشبّكة بالحديد

---

١) اشار الكاتب الى النار التائهة التي يدعوها الفرنسيون (feu follet) وتشاهد في المستنقعات والمقابر وقد ضلّ كثيرون في تعليلها فاتزلوها منزلة المعجزة وما هي الّا من مظاهر الطبيعة ٢) راجع Archives de l'Orient Latin, I, 237 ٣) ان المستر ريج (Rich) كان قنصلاً انكليزياً في بغداد سنة ١٨٠٨. راجع كتابه: Residence in Koordistan, II. p. 389

مرتفعة كل الارتفاع . والغرفة مبلطة بآجرٍ ابيض واخضر مرصوفاً ترصيفاً متناوباً . وفي روزنةٍ صغيرة قنديلٌ موقد

« يقوم القبر في منتصف الغرفة وهو مستطيل الشكل منحرف السطح مصول من الخشب ومُسجًّى بِسَخْلٍ اخضر وطوله ٨ اقدام وعرضه ٤ اقدام وارتفاعه ٦ اقدام وبينه وبين كل طرفٍ من اطراف الغرفة ٣ اقدام . وكانت زواياه واعلاه مزدانة بكُرِيّ كبيرة من النحاس الاصفر المذهّب . . . وقد اخبرنا الاعرابي الذي طوّفنا ان الذي اقام البناء الحاضر قبل نحو ثلاثين سنة هو خوف يعقوب Khoph Yacoob (ربما اراد الكاتب ان يقول خوجه يعقوب او خلفة يعقوب) »

ولا يخلو من فائدةٍ ذكر الوصف الذي وصفه به الرحّالة بنيامين الثاني (١ قال : « وبعد انحدار ثلاثة ايام في دجلة يقوم على عدوةِ النهر بناء مربَّع في منتصف فلاةٍ فيه قبر العزير ويحيط بالبناء بعض دور صغيرة . واما البناء عينه فمؤلّف من غرفتين كبيرتين متنافذتين تخصُّ الاولى منهما المسلمين والثانية مع القبر اليهودَ . وهناك عتمة حالكة يقاطعها نور ضئيل يأتي من الباب . وفيها مصطبة طولها ١٦ قدماً وعلوها عشر اقدام وعرضها ست اقدام . وعلى اطرافها الاربعة كتابة لا تُقرأ اليوم وهي مسجّاة بقماش ثمين مزركش ومحلّى بالذهب . ويزوّق الغرفةَ كثيرٌ من الزين النفيسة ولا يخشى بتاتاً على سلامة تلك الكنوز وان كان موقع المزار في وسط بيداء تحيط بها عشائر البدو . . . وقد كان قبر عزرا موضوع بحثي وتنقيبي اذ ان الكتاب لا يذكر موتهُ ولا محلّ دفنهِ فخامرني شك في حقيقة هذا الحدث الّا اني رغماً عن ذلك تأكدت الأمر من مطالعتي كتاب «سدر هدروث» وغيره من الكتب التاريخية . . . . . ان كتاب «سدر هدروث» لا يصرّح بموضع الدفن ولهذا تمسكتُ بالتقاليد اذ لم اقف على شيء اصحَّ منه بعد البحث المدقق فيه

« وتحتفل جماعة من يهود بغداد والبصرة بعيد الاسابيع (شبيوت) عند قبر عزرا

---

١) ان اسمهُ الحقيقي يوسف اسرائيل (١٨٦٤–١٨١٨) كان من يهود رومانية وانتحل اسم بنيامين الثاني تشبُّهاً ببنيامين التطيلي واحياءً لذكر ذلك الرحّالة الذي عاش في القرن الثاني عشر . وقد بحث في رحلته الاولى عن الاسباط العشرة المفقودة وكان عمره يومئذٍ ستًّا وعشرين سنة . توفي في لندن بينما كان يتأهب لرحلةٍ ثانية للبحث عن يهود الصين

فيشتركون بالحفلات التقوية . ويعرف العرب غاية تلك الزيارات ولا يُقيمون عقبات في سبيلها » (١ (انتهى)

وقد زرتُ (كاتب هذه المقالة) هذا المرقد سنة ١٨٩٣ فكانت تَرِد اليه جماعات اليهود من كل اطراف العراق للتعفّر بثرى رفات الراقد الصالح وزيارة ضريحهِ في عيد الاسابيع فيدخلون غرفة الجدّث وهم حفاة حرمةً للمكان ويوقدون قناديل اكراماً الراقد هناك ويطوّف القيّمُ الزائرين فينقحونه بجلوان . ومن اقسام البناء دار قوراء فيها غرف عديدة لضيافة زائري المكان من اليهود وللسكنى فيها مدة اقامتهم هناك . وقد نُكب بعد زيارتي المذكورة ببضع سنوات زوّار هذا المعهد نكبة احزنت القوم اذ هوى قسم من بناء المنزل فمات عدد منهم تحت الردم ورضّت اعضاء غيرهم . ولكن جماعة اليهود جددت ذلك البناء واحكمت أُسسه (٢

وقد جرى حول هذا المعهد معارك بين البريطانيين والاتراك في ربيع سنة ١٩١٥ ولكنه لم يصب باذى بل غاية ما كان ان اليهود لم يتمكنوا من القيام بزيارة العزير كل مدة الحرب

وآخر وصف ننقل منه نتفةً للقراء يُظهر حالة المعهد في ايامه الاخيرة - ومن مقابلة كتابات الرحّالين المختلفة على توالي الاعوام يقفون على تطوّر ذلك البناء مع الزمان والوصف المذكور نُشر في شهر تشرين الاول سنة ١٩١٧ في مجلة انكليزية (٣ قال الكاتب : ان مساحة الغرفة تبلغ نحو ثلاثين قدماً مربعاً وجدرانها بيضاء مزينة بكتابات ونقوش عربية (٤ ملوّنة بالازرق الباهر والاصفر والاحمر مما يبهر النظر وارضها مبلّطة بقطع من الرخام الملوّن وفي زواياها (اي زوايا القطع) مربّعات صغيرة من الصخر الاسود او الرخام (٥ وفي وسطها القبر ومساحته ١٥×٧×٥ قدم . انتهى

---

١) راجع Sidney Mendelssohn: *The Jews of Asia, p. 199-200*

٢) عن مذكرتي ٣) راجع Blacwood's Magazine, *October 1917, P. 538*

٤) ان الصفة العربية ترجع الى النقوش فقط وكلتا الكلمتين ترجمة arabesques

٥) ان بلاط الغرفة هو القاشاني الملوّن فليس هناك رخام ولا صخر كما توهّمه الكاتب